المقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

مُقَدِّمَة

لا شك أن السنوات الست عشرة التي تولى جمال عبد الناصر فيها مسئولية الانفراد الكامل بحكم مصر ـ (منذ 1954 إلى 1970) ـ لا شك أنها سنوات ستظل تخضع لكثير من البحث والتأمل، في محاولات تحليل إيجابياتها وسلبياتها . . ومع هذا فإن المواطن الذي عاش وعايش هذه الفترة تحت ظل حكم عبد الناصر، ومازال يعايش حتى الآن الطقس السياسي الذي يخضع تيارات الساحة لأحكامه يستطيع أن يلقي الضوء ـ ولو من وجهة نظره ـ على ما دار ويدور في وعلى الساحة المصرية .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما قامت حركة 23/ 7/ 1952م لم تكن مصر أرضًا نائمة أيقظتها هذه الحركة . . بل على النقيض : كانت مصر حبلى بالثورة وبالتمرد معًا ، وكانت في مرحلتها الأخيرة الناضجة المهيأة للوضع والميلاد للانطلاق إلى فجر عصر جديد . . وعندما سبقت حركة الضباط ـ عام 1952م ـ كل التكتلات الوطنية الأخرى إلى التمرد ـ وليس إلى الثورة ـ على الأوضاع الفاسدة ، وعلى الوضعية السياسية التي انتهت شرعيتها في أذهان الجماهير حتى قبل سقوطها ، التف حولها الشعب مسقطًا عليها كل أحلامه الثورية التي تشوق إليها طويلاً خاصة بعد مرارة الهزيمة في فلسطين عام 1948م .

وفي غمرة الحماس الشعبي الذي تبنى حركة الضباط ولقبها بالثورة ـ لأنه كان يريدها كذلك ـ لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة موقف هذه الحركة الجديدة . . بل على العكس وافق المجلس الشعبي على أن يقوم ـ بوعي منه أو بلا وعي ـ بدور "المبرر" لكل الأخطاء التي ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لتوليها الزمام في مصر . . هذه الأخطاء التي وصلت في حالات إلى درجة الخطأ الفادح ، وفي حالات أخرى إلى درجة الجريمة النكراء ، ثم بلغت في نهاية جولتها درجة خيانة الشعب وخيانة مبادئه وأهدافه وقضاياه : (الإسلام ، تحرير المواطن من الجهل والفقر والمرض ، تحرير فلسطين بإعادتها أرضًا ودولة عربية إسلامية بالقضاء التام على الكيان الصهيوني) .

لم يقف الشعب ليناقش مفاهيم ومدلولات شعار "الثورة البيضاء" ـ الذي أطلقه

الضباط على حركتهم ـ ليتساءل ويقارن "بيضاء" على من؟ و"حمراء" على من؟ و"سوداء" على من؟ فقد خلع الملك وتم الإبقاء على ولي عهده الأمير أحمد فؤاد، وأعطى الملك حق "الموافقة" على الثورة بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنازل عن العرش وترك البلاد.

وجاء بيان الإذاعة يقول: "... وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين"!.

وتم رحيل الملك في 26/ 7/ 1952م عن مصر في يخته المحروسة مودعًا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له، ولم يمس كادر ملكي من أتباعه بشعرة أذى واحدة.. وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمي لهذه الحركة.. لأنه وبعد أسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب "الحضاري!" مع ملك مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه، توافق أن قامت في مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج ـ يوم 10/ 8/ 1952 أو 12/ 8/ 1952م إذا لم تخنّي الذاكرة ـ مظاهرة تمرد ضد الإدارة الرجعية التي لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش.. وكانت هذه الظاهرة التي قام بها عمال المصنع قد رفعت شعارات الحركة الجديدة التي جاءت ـ كما قيل في الإذاعة ـ ضد الفساد والاستغلال، وهتف العمال بحياة القائد العام وفتيته الثوار، وكانوا قد تصوروا أن هذه الحركة لا بد متبنية لمطالبهم مساندة لموقفهم ضد الإدارة الرجعية ـ ولكن العجيب حدث: إذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار "الثورة البيضاء" عن أنيابها وتحالفت مع الإدارة الرجعية وتم قمع مظاهرة العمال دون أية محاولة لتفهمها، ودراسة بواعثها.

وأقيمت فوراً المحكمة العسكرية لمحاكمة (العصاة): وتم تقديم ما يربو على 60 متهمًا وتم تحديد زعمائهم باتهام العامل "خميس ـ 18 سنة" والخفير "البقري ـ 19.5 سنة" ـ وهو أب يعول خمسة أطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب القليل في

اليوم! ـ وكان من بين المقدمين للمحاكمة : أطفال في سن العاشرة والحادية عشرة " شاءت إنسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم " . . كما جاء في تقرير أحكام قضية عمال كفر الدوار الذي صدر عن إدارة القوات المسلحة 8/ 1952م برجاء الرجوع إليه لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا في فهم الطبيعة الفاشستية لهؤلاء الضباط التي عبرت عن نواياها منذ الشهر الأول لقيام هذه الحركة .

* * *

وفي أقل من أربعة أيام تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين . وصدرت الأحكام بإعدام خميس والبقري والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى لبقية المتهمين . وتم تجميع عمال المصنع كلهم في النادي الرياضي وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهم الأحكام المرعبة خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل .

ويقول شهود الواقعة من الصحفيين الذين أثبتوا شهادتهم في تحقيقات صحفية نشرت بالمصور وآخر ساعة وغيرها من الصحف في شهر أغسطس 1952م أن المتهم "البقري" وزميله "خميس" استمرا يصرخان في المحكمة : "يا عالم . . . يا هوه . . مش معقول كده . . . هاتوا لنا محامي على حسابنا حتى . . . ده احنا هتفنا بحياة القائد العام . . . ده احنا فرحنا بالثورة المباركة . . . مش معقول كده . . .) .

وبناءً على هذه الصرخات سألت المحكمة الجلوس :

ـ حد فيكم محامي يقبل الدفاع عنهم؟

فتقدم موسى صبري المحامي (الصحفي الآن) وقال : أنا محامٍ .

وسمح له بالجلوس مع المتهمين دقائق . وبعدها قدم مرافعة شكلية قصيرة ثبتت التهمة على الشهيدين .

وتم تنفيذ الإعدام في البقري وخميس يوم 17/ 8/ 1952م، وسجلت الصحافة وقتها اللحظات الأخيرة في حياة خميس والبقري[1]، وقد وصفهما محرر آخر ساعة صلاح هلال بأنهما شيوعيان والثابت أنهما لم يكونا منتميين إلى أي فكر سياسي، ولم تكن المظاهرة سوى تعبير وطني عام عن الفرح بقدوم عهد جديد، وفرصة للتنفيس عن بغضهم للإدارة الرجعية الظالمة . . والطريف أن الحزب الشيوعي المصري تنصل وقتها من انتمائهما وأنكره، أما الآن ـ وبعد أن أعيدت ذكرى الظلم الذي وقع على خميس وبقري ـ فيطيب للماركسيين المصريين أن ينوهوا ويفتخروا ويؤكدوا أن خميس وبقري كانا بالفعل من الشيوعيين، وهذا غير صحيح ولم يكن أبدًا .

في نفس الفترة حدث تمرد حقيقي بالصعيد ضد مصالح الشعب وضد حركة 1952م بصفتها حركة لصالح الشعب . قام بهذا التمرد المسلح إقطاعي اسمه عدلي لملوم، لم يكفّ هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ضد الثورة وضد الفلاحين، وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد[2] حتى تفسح له مكانًا من رحمة شعارها "الثورة البيضاء" هذا الشعار الذي شملت به الملك من قبل، واتسع ليضم كل الفاسدين المفسدين من سفاحي الشعب المصري حقًا : من وزراء ورجالات وإقطاعي "العهد البائد" والذي ضاق وعجز تمامًا عن استيعاب ورحمة ابنين معدمين مخلصين من أبناء الشعب المستضعف الذي تدين حركة الضباط ـ أول ما تدين ـ لتضحياتهم في سبيل نجاحها واستمرارها .

(1) انظر مجلتي المصور وآخر ساعة أعداد شهر 8/ 1952م .
(2) تجدر الإشارة هنا إلى الإفراج الصحي الذي حصل عليه عدلي لملوم بعد ذلك كما تجدر الإشارة إلى أن محاكمته كانت حافلة بأقطاب المحامين .

هذه البداية لحركة 23/ 7/ 1952م ننظر لها الآن ونستطيع أن نستشف فوراً: خلوها الكامل من فكر ووعي يعطي لها منطلقًا مبدئيًا يحدد لخطواتها الطريق الذي تصعده متدرجة نحو غاية محددة، أو رؤية حضارية أو فلسفية إنسانية تحسم لها المواقف وتحلل لها الظواهر بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين: تمرد للعمال إيجابي، كمثل الذي شارك فيه الشهيدان "خميس" و"بقري" وبين تمرد سلبي لإقطاعي مثل عدلي للوم.. بحيث لا تصل إلى قرار بأن تقتل أبناء الشعب وتحافظ على حياة أعدائه وتستمر في ذلك حتى الآن.

منذ هذا الخلط الواضح في مبدئية حركة الضباط هذه ـ استمرت هذه الحركة في اتخاذ سياسة: ذبح كل الاحتمالات الواعدة التي يمكن أن تشرئب من بين صفوف الشعب المصري لتحاسبها أو تناقشها أو تفضحها وتقول لها: مكانك! لقد خدعنا فيك، ولست أنت أمل مصر، ولا صيغة خلاصها غير مفرقة في هذه السياسة بين الحركة الإسلامية، وعلى رأسها "الإخوان المسلمون"، أو الحركة العلمانية اللا إسلامية بتياراتها المختلفة من شيوعيين أو يساريين أو اشتراكيين أو حتى بين صفوف الاتحاد الاشتراكي فيما بعد! هذه السياسة التي أفقدتنا ـ بين الكثير الذي فقدناه ـ مفكرين عبقريين من أعظم ما أخرجته التربة المصرية لمصر وللوطن الإسلامي وللعالم اجمع، هما الشهيد عبد القادر عودة (1955م)، والشهيد سيد قطب (1966م) حين نفذت فيها "الثورة البيضاء" حكم الإعدام ظلمًا وجوراً واعتسافًا، ولقد مارس عبد الناصر هذا النهج، وبلوره وأجاده منذ أن انفرد بالسلطة عام 1954م معتمداً معه سياسة سرابية: تغذي الأحلام، دون أن يجد أي حلم شعبي سبيله على أرض الواقع، وتصنع منه رمز الفارس الآسر القوي أو "الجدع" مستقطبة أحلام الشعب العربي في مصر وخارجها، للتمركز في شخصه مكررة على مسامعه السؤال الشرير: "من البديل؟" والبدائل العظيمة تسحق دوريًا بالمشانق والتعذيب والاعتقالات التي

لا تنتهي، ولقد بلغ اتجاه التمركز في شخص عبد الناصر أوجه عام 1956م عند إصداره قراره تأميم قناة السويس الذي صاغه بحيث يبدو هو من ورائه "الشجيع" الذي يصفع أمريكا في مقابل صفعة من أمريكا حين رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي فظهر قرار التأميم أمام الشعب العربي الفرحان كضربة شجاعة تثأر لرفض تمويل السد العالي: ضربة شجاعة لا يقدر عليها إلا "الجدع" عبد الناصر، وتاهت في الصخب حقيقة أن تأميم قناة السويس حق من حقوق الشعب المصري[3] كان يجب أن يتم سواء قبل البنك الدولي أم رفض تمويل السد العالي أو غيره، وأن هذا الحق يجب أن يصدر بقرار هو جزء من خطة منهجية في برنامج الثورة ويصدر باسم مصر واسم ثورتها وليس باسم شخص محدد يملي إرادته على مصر بدلاً من أن تملي مصر عليه إرادتها.

ومع ذلك فسوف نقبل هذا القرار ـ أيًا كان الأسلوب الذي صدر به ـ كان مكسبًا للجماهير العربية وكانت إدانة الأمم المتحدة للعدوان الثلاثي الذي حدث أثره، كانت هذه الإدانة من النتائج الإيجابية التي كسبتها مصر ومعنويات الشعب العربي. . لكن هذه المكاسب إن كانت قد غفرت لعبد الناصر أسلوب إعلان قرار التأميم فإنها لا تغفر له إخفاء حقيقة الوضع العسكري الذي نشأ في المنطقة أثر العدوان عن الجماهير العربية وعن الشعب المصري ـ دافع الثمن دائمًا ـ فقد تصورت الجماهير أنها انتصرت مائة في المائة، وأن الاحتلال الأجنبي قد رحل تمامًا ولم تعلم أي شيء عن وضع مضايق تيران، أو شرم الشيخ، أو الموافقة السرية من عبد الناصر للسماح للسفن الإسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية.

واستمر الصعود المتنامي لشخص عبد الناصر كزعيم عربي، رأت فيه الجماهير

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن تأميم قناة السويس تضمنه البرنامج السياسي لبعض الهيئات الشعبية مثل الإخوان المسلمين والحزب الاشتراكي (أحمد حسين).

العربية ـ التي تجهل معظم الحقائق وتعيش بالحلم والدفع الإعلامي ـ أملها المنشود خاصة بقرار الوحدة مع سوريا عام 1958م . . هذا القرار الذي تم كذلك بقرار فردي مباغت ومفاجئ . . ومع ذلك ساندته كل القوى الحركية العربية، وتسجل سنوات 1959م، 1960م (تأميم الصحف في مصر) حتى 1961م أوج الصعود الشخص عبد الناصر مجسداً ـ بشعاراته ـ أماني وأحلام الأمة خاصة بعد أن أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه: الاشتراكية العربية . . مع هذا الصعود لشخص عبد الناصر كان هناك دائماً الهبوط لسعر الشعب المصري وقيمة الفرد فيه حيث كانت هذه السنوات نفسها سنوات بزوغ المنهج الإجرامي وتألقه لإلغاء شخصية الإنسان المصري ومحوه الذي ابتدعه عبد الناصر وسلطه هو وقنواته ليحول الشعب المصري المتكلم الساخر الفصيح إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة، وسوى إخفاء الكلام كالسمك في كيس منقاره: سنوات تأسيس منهج إشاعة الذل والقمع، والإرغام والاقتلاع من الجذور وجدع الأنوف وقطع الألسنة ـ حتى ولو يقول النكتة التي لا يحيا بدونها المصري ـ وقصم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط. سنوات تقنين المنهج البدائي الهمجي الذي عبر به المغول والتتار منهج إحراق مكتبات بكاملها بعد شنق مؤلفيها الأفذاذ حتى لا يقرأ الشعب المصري، ومن ورائه الشعب العربي الكتب التي تمد إليه طوق نجاته ـ الإسلام ـ ويغرق بدلاً منها حتى أذنيه في مؤلفات الركاكة، والسماجة، والأكاديمية المزيفة، والشقشقات والطقطقات التي ترضي الزعيم، وتخلص دائماً إلى النتيجة بأنه: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، وأن الفزع الوحيد ـ الذي يجب أن يواجهه الشعب المصري ـ هو فزع احتمال غياب عبد الناصر. فمن يكون البديل لهذا الفلتة المفلوتة من دورة الزمان؟!

وبما أن لكل عملة وجهين ولكل شيء ما يريح وما لا يريح، فإن خمر السلطة

وكرباج القمع تمكنا من عزل عبد الناصر تمامًا حتى عن موقع قدميه حيث أصبح لا يرى أبعد من أنفه، وتحت وطأة منهجه الإجرامي في تعبيد شعب مصر الذي حاول ممثلوه أن يقرروه على شعب سوريا الإقليم الشمالي لجمهورية عبد الناصر العربية المتحدة كسرت الوحدة بين سوريا ومصر في 1961م، وكانت الهزيمة الأولى الواضحة لعبد الناصر ومع ذلك لم يفق عبد الناصر أثر هذه الرجة العنيفة لحكمه بل على العكس استمر أعمى في أسلوبه الخطر الذي كبده ـ شخصيًا ـ في النهاية هزائم أقسى وأمر . . فبدلاً من أن يراجع سياساته حتى يقف على طبيعة الأسباب التي تكالبت على الوحدة، وكبدت الجماهير العربية خيبة أمل محزنة ومرة، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية متعاميًا تمامًا عن أسباب مسئوليته فيها مباشرة معتمداً على مكانة الحب الهائلة ومستغلاً لها ـ تلك المكانة ـ التي كانت تضعه في قلوب الجماهير العربية التي لا تريد لأحلامها أن تتبدد.

واحتمى عبد الناصر من هزيمته هذه ـ في انفصال سوريا عنه ـ خلف قوانين 1961 الاشتراكية التي ألهت طبولها ومزاميرها وأفراحها الناس عن رؤية الأخطاء التي تكمن في سياسة عبد الناصر الفردية السرابية، ومنهجه القمعي، والذي أدى مجملها فيما بعد إلى تعطيل كل هذه القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة.

* * *